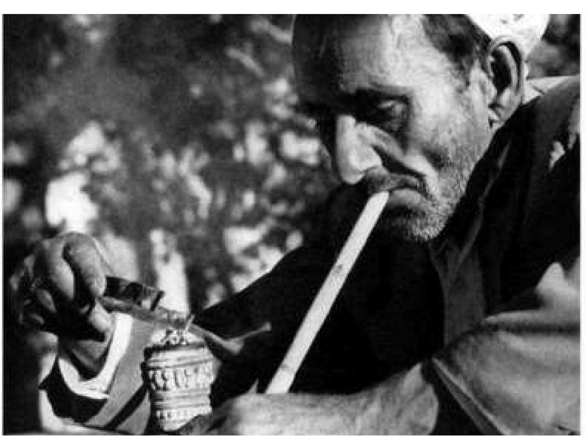


بعلبك 1959: مهرجان وسياسة... وحشيش (2)

عماد الدين رائف الأحد 2025/06/29





"تجار الحشيش لن يحملوا السلاح أبدًا. يفضلون رشوة نواب البرلمان والوزراء"

في زيارتهما الثانية إلى مدينة بعلبك، صيف 1959، يكشف الرحالان التشيكسلوفاكيان ميروسلاف زيكموند ويرجي هانزلكا عن الهوّة الكبيرة بين زراعة حشيشة الكيف وتجارتها. طبقتان من البشر: المزارعون مغلوب على أمرهم يعانون الأمرين من الأمراض المختلفة وفقر الحال، وهم مكشوفون للقوى الأمنية، أما التجار فليسوا في بعلبك أو منها، يستغلون المزارعين الفقراء ويغطون تجارتهم المربحة بعلاقاتهم بالنواب والوزراء والساسة المتنفذين.
يزور الرحالان برفقة الطبيب روبرت فيت والمهندس أولدريش تشالوبا العمال الزراعيين، ويتسنى للطبيب أن يكشف عليهم بهدف مداواتهم من رمد غبار الحشيش... نقف على أبرز ما جاء عن ذلك كما ورد في كتاب "الهلال المقلوب"، الصادر في براغ سنة 1961.

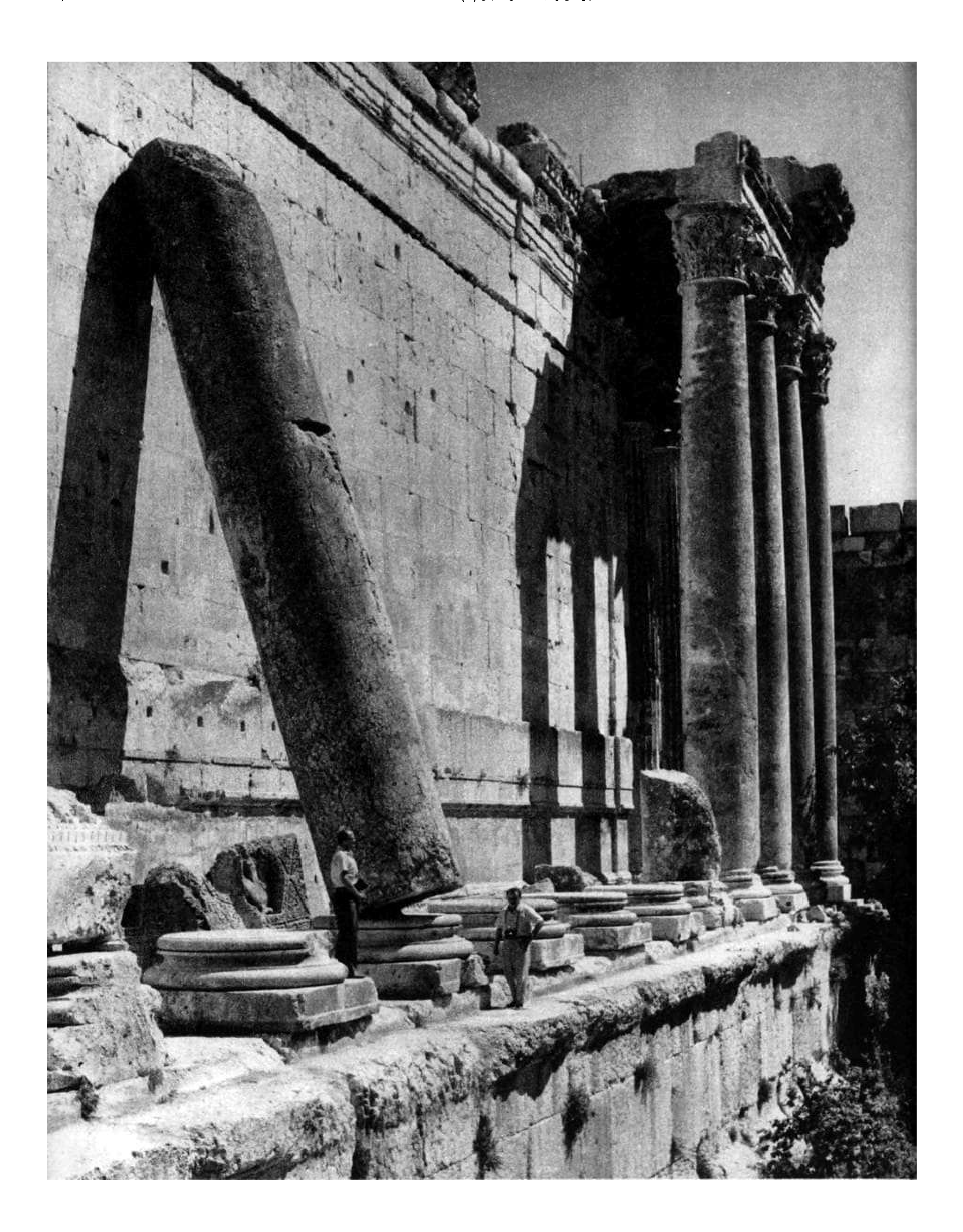
مقهى بعلبكي

... في سوق بعلبك مقهى صغير، وهو يقدم خدمات مطعم صغير بأسعار معقولة. يرتاده زبائن دائمون، يعرفون المالك والمالك يعرفهم. ويرحب المالك أيضًا بالأجانب الذين يرافقونهم موحيًا كأنهم من المعارف القدامى. على طول جدران المقهى تصطف خزائن تحتوي على مرطبانات المخللات والمقرمشات، وخلف المنضدة تقف ثلاجة وموقدان. مالك المقهى مشغول، بناءً على طلب الزبائن، فهو يقلي "قصبة" (كبد الضأن) أو يشوي الكفتة (الشيش كباب) حسب الطلب. من الأفضل أن نتحدث عن "الحشيش" (حشيشة الكيف) ليس هنا، بل في مكان أبعد، على الأقل بين أطلال قلعة بعلبك، ففي المقهى من الممكن أن يظهر مستمع غير مدعو في أي لحظة. اضطررنا للمكوث في المقهى لأننا ننتظر جميل، الذي من المفترض أن يأتي إلى بعلبك خصيصًا للقائنا. إذ لديه علاقات مع بعض مزارعي الحشيش، وسيحاول إقناع أحدهم بكشف بعض أسراره لنا.
نلتقي بإبراهيم (المترجم)، وهو رجل ذو جسم متناسق وشعر مصفف بعناية وشارب ضروري لا مفر منه هنا، يبدو كأنه لا يهتم بهندامه، وينظر باستمرار متفحصًا الوافدين الجدد، لتحديد ما إذا كانوا من معارفه أم لا. يتحدث بهدوء، ويشير بين الحين والآخر بنظره إلى عزيز كي يخفف من حدة صوته.

- "تدخين الحشيشة محظور تمامًا بموجب القانون. كل مدخن يلقى القبض عليه من قبل الشرطة متلبسًا يُساق مباشرة إلى السجن. لكن... ما هو هذا الإجراء التأديبي، إذ يطلق سراحه بعد أسبوعين، ويستمر بعدها في تدخين الحشيشة؟".

- "سمعنا أن الشرطة تقوم بإتلاف الحشيش. هل هناك أي صلة أو تشابه هنا مع إجراءات الشرطة على الساحل اللبناني، عندما اضطر أصحاب الملاحات (في أنفة – قضاء الكورة) إلى الدفاع عنها شاهرين السلاح في وجه مرتزقة الأجانب المنافسين (تجار الملح المستورد)؟".
"لا أعلم إن كان هناك منافسة أم لا". يجيب عزيز، الرجل المتقلب المزاج. من الواضح أنه يمتلك موهبة عظيمة في التمثيل، وهو يحكّ خلف أذنه. وكأي عربي، فهو لا يتكلم بيديه فقط، بل أيضاً بحاجبيه وجبهته وشاربه وتجاعيد وجهه.

"ولكن كانت هناك معارك. ومعارك شرسة. في عام 1949، وقعت اشتباكات بين مزارعي الحشيش والشرطة، وسقط قتلى أيضًا". يلوح عزيز بيده بحدّة، وكأنه يؤكد على الكلمات التي يقولها: "في الواقع، أولئك الذين يتاجرون... تجار الحشيش لن يحملوا السلاح أبدًا. يفضلون رشوة نواب البرلمان والوزراء. كما استغلوا اللاجئين الفلسطينيين، الفقراء الجائعين الذين طردوا من فلسطين بسبب الحرب، فدافعوا عن تجارتهم عرضوا جباههم للرصاص من أجل كسرة خبز".



يقاطعه إبراهيم: "أريد أن أوضح شيئًا، يوجد حاليًا نحو عشرين ألفًا في بعلبك، نصفهم من اللاجئين الفلسطينيين. العمالة الرخيصة". يضيف راسمًا على وجهه ابتسامة مريرة: "قانون العرض والطلب يسري على العمّال هنا بشكل موثوق. أشياء مذهلة تحدث مع تجارة الحشيش في هذا البلد. وبموجب الاتفاقيات الدولية، يعد لبنان أحد البلدان القليلة المسموح لها بزراعة الحشيش. ولكن من المستحيل تحديد كمية الحشيش المزروع في أي سنة عبر البيانات الإحصائية. يُحظر الاتجار بالحشيش. ومع ذلك، تهرب كميات من الحشيش بحرية إلى جميع البلدان المجاورة، إلى سوريا، وخاصة إلى مصر. المهرب قد يتعرض لغرامة تصل إلى مئة ألف ليرة لبنانية". أي ما يعادل ربع مليون كرونة تقريبًا.
- "ولكن هذا يحدث نادرًا جدًا". يقاطعه عزيز: "تجار الحشيش مترابطون بعضهم ببعض بشكل وثيق ولن يسمحوا لأي شخص لا يثقون به بالدخول إلى مناطقهم. ولا حتى لنائب من نواب البرلمان".
- "لكنك مهتم بكيفية إتلاف الحشيش. كانت هناك حالات حيث جاء رجال الشرطة وجنود الجيش مباشرة إلى الحقل، حصدوا المحصول وأتلفوه على الفور، أو حصدوه ونقلوه إلى بعلبك وأحرقوه في الساحة، مما أثار الرعب بين الناس. آخر مرة حدث فيها تدمير علني لمحصول الحشيش كانت في عام 1956. ما هي الكمية التي أحرقت؟ كبيرة، نقلوا المحصول في عشر شاحنات على الأقل".

"كي لا نغرق"

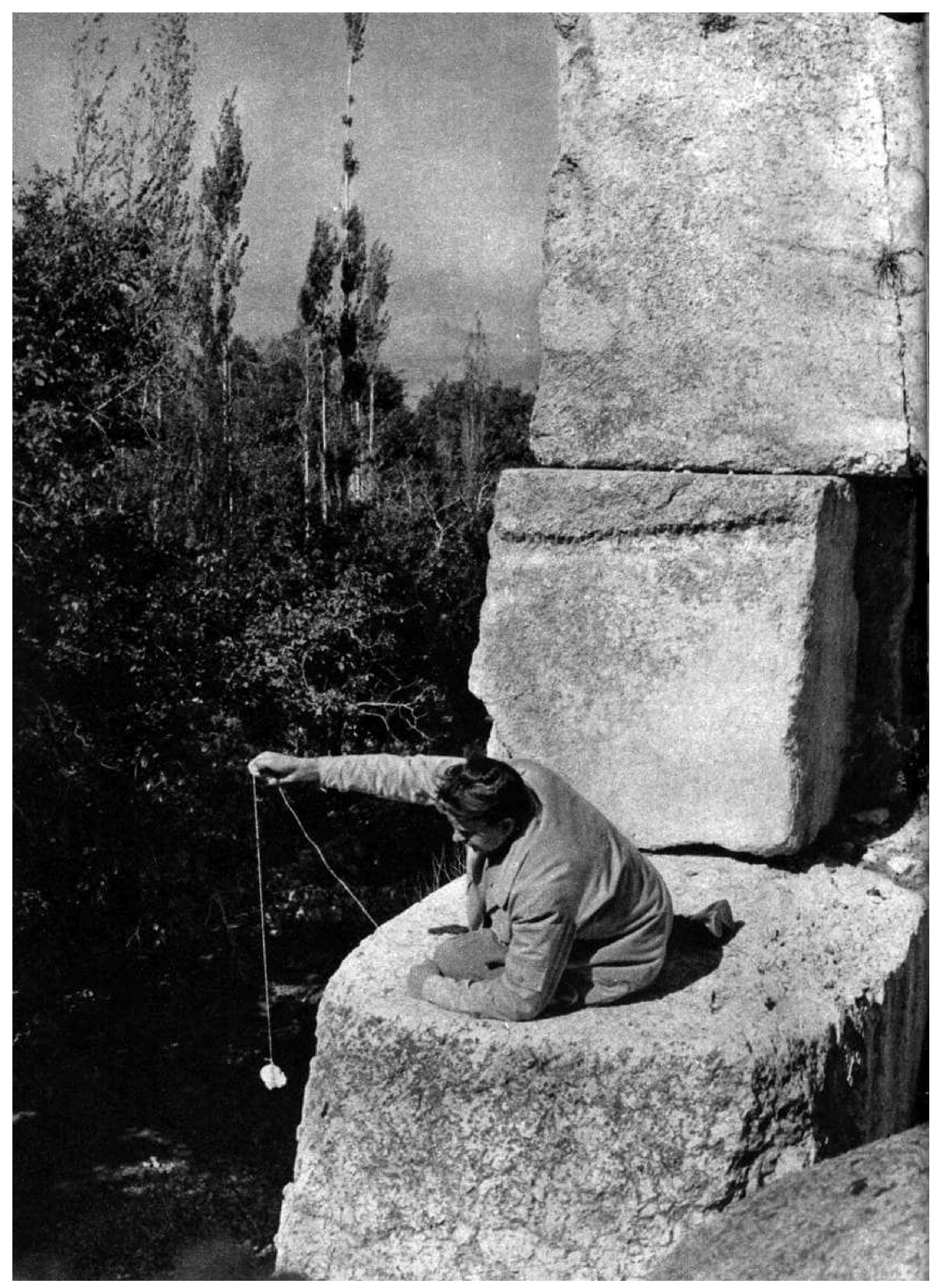
دخل بائع جرائد إلى المقهى، وهو فتى نحيف يبلغ من العمر حوالي خمسة عشر عامًا. همس إبراهيم: "أنظر إليه جيدًا". وعندما غادر الصبي، أخبرنا إبراهيم أنه يتيم، وكان يدخن الحشيش بكثرة. يستخدم الأموال التي يكسبها من بيع الصحف، ويشتري الحشيش. يمكنه أن يموت من الجوع، لكن لا يمكنه ألا يدخن الحشيش. وقد أطلق سراحه من السجن منذ أيام قليلة.
يتداول أهل بلاد فارس حكاية عن ثلاثة مسافرين متجهين إلى أصفهان. وصلوا إلى أبواب المدينة الموصدة ليلًا. ناقشوا في ما بينهم ما ينبغي فعله. الأول، بدلاً من الإجابة، أخذ رشفة عميقة من زجاجة مشروب كحولي قوي. والثاني كان يدخن غليون الأفيون، والثالث أنبوب الحشيش. وبعد نصف ساعة تشاوروا في أمرهم. صرخ الأول بغضب: "دعونا نهاجم البوابة ونحطمها!". وقال الثاني بتواضع: "دعونا نستلقي هنا ونحصل على بعض النوم، وفي الصباح ستُفتح لنا الأبواب". أما مدخن الحشيش فقال: "سوف ندخل من خلال ثقب المفتاح".

- "هل سبق لك أن دخنت الحشيش؟" - فكر عزيز للحظة ثم نظر إلينا باهتمام من تحت حاجبيه. –
"أستطيع أن أخبرك عن ذلك. جربته وبشكل كامل. كنت أدخن عشر مرات يوميًا. الآن بعدما تعلمت القراءة والكتابة، توقفت عن التدخين. لكن الأمر مثير للغاية. كل شهرين أشعر بضغوط... يجب أن أدخن. وبعد

التدخين يحلّ السلام لبعض الوقت". عزيز شخص رائع. من غير المحتمل أن يرغب أي شخص العراك معه إذ سيتلقي صفعة على الرقبة من رجل ضخم الحجم ذي يدين كمجرفتين. لكنه شخص طيب. يفرح مثل طفل بالاهتمام الذي نستمع به إلى كل كلمة يقولها، ويتألق بنوع من النعيم الداخلي، ولا يرفع عينيه عن شفتي إبراهيم، الذي يترجم كل ما يقوله إلى الفرنسية. يضيف: "يعمل الحشيش بسرعة مذهلة، وعندما تدخنه، فأنت بالتأكيد بحاجة إلى استنشاقه. بعد مرور ما بين عشر وخمس عشرة دقيقة، تشعر وكأنك فوق غيمة من السعادة، وتختفي كل همومك، وتريد أن تضحك وتغني باستمرار. لا يمكنك تحمل الضجيج. أنت تشعر بالإثارة الشديدة".

- أي ضجيج؟

- "مثل أبواق السيارات. أو لنقل صرخة طفل. أو...". يعقد عزيز حاجبيه، ويكوم منديله في يده، ثم يرتجف فجأة ويستدير نحو الباب. "لنفترض أنها ضربات مطرقة على السندان، أو الضوضاء التي يصدرها صانعو الصفيح، لا تُطاق أيضًا. وأيضا الشتائم. الشتائم أيضا تؤثر على أعصابي. وكنا عادة نذهب للتدخين في الحقل عند سفح أطلال القلعة. إنه مكان هادئ دائمًا".



تذكرنا تلك الحكاية الفارسية الخيالية. وذكرت له أيضًا قصة السيد غوتيه، الذي وصف كيف أنه بعد تدخين الحشيش، بدا له وكأنه أصبح شفافًا، لدرجة أنه يستطيع أن يرى من خلال نفسه وحتى ما في معدته. بدا له أصدقاؤه كأنهم مخلوقات غريبة، نصف بشر ونصف شجر. تحدثوا معه باللغة الإيطالية، وترجم له الحشيش على الفور كلامهم إلى الإسبانية. فجأة شعر وكأنه أصبح لزجًا، وأصبح جسده أصغر حجمًا، وكان بإمكانه المرور بسهولة عبر عنق الزجاجة...

- "هذا هراء"، - صرخ عزيز غاضبًا، - "غوتييه اخترع كل هذا. لم يحدث لي شيء مثل هذا من قبل. كنا ندخن الحشيش ولم تكن لدينا أي هلوسات أيضًا. كنا نخبر بعضنا بعضًا بما يحدث. ما شعرنا به في الحقيقة هو الخوف. كنا خائفين من الثعابين والعقارب والماء. عندما نظرت إلى كوب الشاي، بدا لي أنني سأغرق فيه. سأريكم قناة ري ضيقة تحت الأعمدة في القلعة. في الحالة الطبيعية، يمكنك ببساطة أن تخطو فوقها ذلك. بالنسبة إلينا بدا الأمر وكأنها البحر. كنا دائمًا نمسك بأيدي بعضنا البعض حتى لا نغرق".

داخل المطحنة

"لا تنزعجوا منا، من فضلكم، لعدم إخباركم باسم القرية". وعدنا جميل وإبراهيم وعزيز بذلك. ركبنا سيارتي أجرة كي لا نلفت الأنظار. ركب جميل في السيارة الأولى وقرر أن نتوجه إلى القرية من دون سابق إنذار، ومهما حدث، لن يطردونا من القرية... دخلنا القرية، وتوقفت السيارتان في الوقت نفسه... خرجنا من السيارتين نحو فناء مبنى كبير من الطوب بدون نوافذ. عند الباب، التقى جميل برجل لفّ رأسه بكوفية، بدا كأن أحدهم رش مسحوقًا رماديًا وأصفر على وجهه. أرسل نظراته فوق السيارتين وفوق رؤوسنا. أقنعه عزيز بأن نياتنا حسنة، ولا داعي للخوف منا.

دخلنا المبنى. كدنا نختنق من الداخل. في الدقيقة الأولى لم نتمكن من تحديد اتجاهنا على الإطلاق. بدا لنا وكأننا وجدنا أنفسنا داخل طاحونة دقيق ضخمة، حيث كان الصمت يسود وكانت هناك رائحة مذهلة وممتعة بشكل لا يصدق ومثيرة، كأنها مزيج من الراتنج والنعناع وشيء آخر. توقف فجأة صوت الحفيف الثابت، الذي لم نلاحظه على الفور. وبعدما اعتادت أعيننا على العتمة، أحصينا نحو عشرة رجال ونساء في الغرفة، يجلسون حول صندوق واسع مغطى بمنخل... كانوا يطحنون أوراق النباتات المكدسة على الحائط المقابل. ولم يكن هناك هواء للتنفس بسبب الغبار والرائحة المسكرة. نظروا إلينا بصمت، غطوا وجوههم وأفواههم بخرق رؤوسهم.. "تصوير؟". "لا، بالتأكيد لا"...

قال العزيز للرجل ذي الكوفية: "بين أصدقائي طبيب، حكيم من أوروبا. إذا أردت، يمكنه أن يفحص الناس هنا". تركت كلمات عزيز انطباعا جيدًا. حتى الآن لم يحدث قط أن جاء طبيب إلى هنا وعرض مساعدته. خرج العمال والعاملات من الغرفة واحدًا تلو الآخر، وهم يغطون أعينهم بأيديهم من أشعة الشمس القاسية.. سمحوا للطبيب أن يفحص أعينهم بطاعة. عانوا جميعهم من تضيق حدقة العين، وتفجر الأوعية الدموية، ونتيجة للتهيج المستمر غدا سطح الأنسجة جافًا تمامًا. وفي أربع حالات من أصل خمس، كان السبب هو التهاب الملتحمة المزمن. مع مرور الوقت، سيصابون بإعتام عدسة العين. إذا لم يغيروا عملهم هذا، فسوف تتوقف الشمس عن الإشراق بالنسبة إليهم يومًا ما...

جميل، الذي كان يتجول في الفناء غمز لنا وسحبنا ليقول إنه هناك، بالقرب من المنزل، يمكننا أن نرى نبات الحشيش ينمو بجوار الحائط مباشرة. ويبدو أنه سقطت بعض البذور ونبتت في شق رطب، وارتفعت إلى نحو ثلاثة أرباع المتر. وافق الرجل ذو الكوفية، على مضض، أن نختار فرعين أو ثلاثة كتذكار... شكرناه على لطفه، وفي عينيه قرأنا الارتياح ما إن علم أن الضيوف غير المدعوين سيغادرون أخيرًا.

خفايا التجارة

لم نعرف بعد كم يبلغ سعر الحشيش في لبنان حيث يتم إنتاجه. ولم يخبرنا الرجل ذو الكوفية ذلك إلا بعدما كررنا سؤالنا ثلاث مرات. يتراوح سعر الهقّة الواحدة (وحدة قياس وزن محليّة)، التي تعادل 1250 غرامًا، بين مئة ومئتي ليرة لبنانية، بحسب النوعية.. أي ما أجر عامل بناء لستة أسابيع عمل. في مصر يدفعون عشرة أضعاف هذا الثمن. وفي المملكة العربية السعودية والكويت ومنطقة الخليج، يعتبر الحشيش ثميناً للغاية، ويباع هناك بالغرام. قبل أيام قليلة، ظهر مقال قصير في مجلة "بيروت ويكلي" بعنوان "الإفراط في إنتاج الحشيش سيقتل التجارة". قررت الحكومة اللبنانية عدم إتلاف المحصول، معتبرة أن هذا من شأنه أن يؤدي إلى فائض من الحشيش، بحيث ينخفض سعره بشكل حاد، وسيصير المزارعون مفلسين! الإنتاج الزائد سوف يبيدهم بنظر الحكومة الحالية، بعدما كان نهجها معاكسًا تمامًا. الأمر أشبه بلعبة ماكرة، مثل اتفاقية بين أرباب التجارة والسياسيين والتجار في الخارج، فهم يعرفون جيدًا، ومن دون تذكير، من المشتري ومتى تنجز الصفقات وأين، من دون تذكير، وكيف تمر الأموال ومن يستلمها، ومقدار الرشوة ومن هم المرتشون. ولا علاقة للمزارعين بكل هذه الدائرة. وينطبق هذا في المقام الأول على مصر، أكبر مستهلك للحشيش بين الدول العربية. ولهذا السبب، فور ظهور المقال، تواصلت سفارة الجمهورية العربية المتحدة مع الحكومة اللبنانية متسائلة: إلى أي مدى يتوافق مضمونه مع الواقع؟ زعم معارضو التكتيكات اللبنانية الجديدة أن كل هذا هراء، وأن كثرة الحشيش لن تقضي على التجارة، بل العكس صحيح. وسوف يؤدي هذا إلى تحقيق أرباح إضافية للتجار والمهربين. إلا أن هذه السياسة ستؤدي إلى تحويل آلاف جديدة من الفقراء إلى متسولين.

حجم الخط

مشاركة عبر

التعليقات

التعليقات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

التعليقات: 0 فرز حسب الأقدم

إضافة تعليق...

المكون الإضافي للتعليقات من فيسبوك

الكاتب

عماد الدين رائف

مقالات أخرى للكاتب

بعلبك 1959: مهرجان وسياسة...وحشيش(1)

الخميس 2025/06/19

بيروت 1844: المدينة وناسها في زمن مضطرب

الأربعاء 2025/05/14

لينا كوستينكو: وصمها السوفيات بـ"عداوة الشعب"...هي الفخورة مثل ثورة

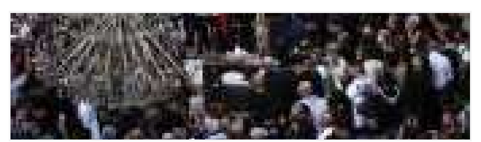
الأربعاء 2025/03/19

"أغنية الغابة" بالعربية...أسحار أوكرانيا وقد مرّت بالجزائر

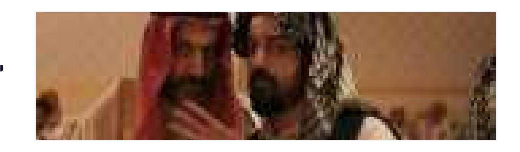
الخميس 2025/02/20

عرض المزيد

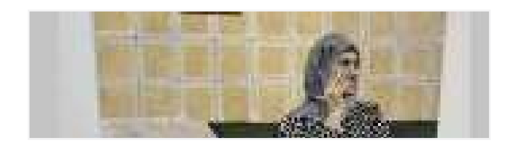
الأكثر قراءة

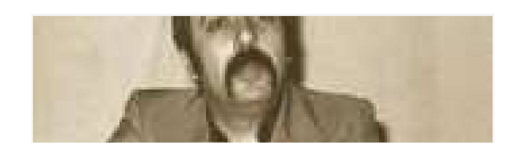


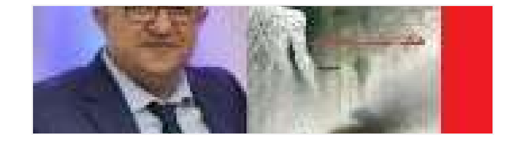
قراءة هادئة في خطاب البطريرك


"صيفي": سعودية الكاسيت


بعلبك 1959: مهرجان وسياسة... وحشيش (2)


معرض ميسم الهندي: شهادة من أهل هذا البيت


الحسام محيي الدين يقرأ نقمة عصام محفوظ ولغته ...


هيثم حسين يفتح أرشيف جسده في سيرة مؤلمة


جريدة إلكترونية مستقلة

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك



